

دور ورق البردي

في نقل الروايات الأولى لألف ليلة وليلة ونصوص
قديمة أخرى وتدوينها وضبطها في القرون الثلاثة
الأولى للحضارة الإسلامية

رئيف جورج خوري

أودّ أن أبدأ محاضرتي هذه بشكر الجامعة التونسية ممثلة بالسادة
رئيسها وعميد كلية الآداب منوبة وكل أعضاء اللجنة التحضيرية للملتقى
الدولي بمناسبة مرور ثلاثين سنة على تأسيس « مجلة حوليات الجامعة
التونسية » الذي يعقد في تونس من 23 إلى 26 نوفمبر / تشرين الثاني
1994 لدعوتهم اللطيفة ولما بذلوه من الجهود الكبيرة ليكون هذا المؤتمر
بهذا المستوى العلمي الرفيع وبهذه الحفاوة المثالية ، متمنيا لمؤسسي المجلة
وأعضاء الجامعة متابعة العمل والنشاط المثمرين بصورة مثالية كما تعودنا
عليه منهم منذ البدء إلى الآن .

ويسعدني أن أشير كمقدمة لهذه المحاضرة - التي وسّعتها قليلا ⁽¹⁾، مضيفا بعض الملاحظات في مؤلفات عربية قديمة جدا خارجة عن نطاق ألف ليلة وليلة - إلى أهمية قراءة التّصوص الإسلامية القديمة وإعادة قراءتها ولو لم يكن هناك هدف خاص للبحث العلمي من وراء ذلك ، لأن في ذلك فائدة جمة لفهم هذه الكنوز الكلاسيكية وإعطائها حق قدرها لبناء حضارة حديثة تأخذ قوّتها من الماضي ، بل تسير إلى الأمام مع ماض حيوي مفهوم .

وإنّه لمن دواعي السرور أن يلاحظ الباحث والأستاذ الجامعي أنّ هناك عددا كبيرا من الجامعات انتبعت لهذه الناحية المهمة للغاية فأدرجت في برامج تدريس طلابها مؤلفات متنوعة تعبر عن الخلق المبدع في العصور الإسلامية الأولى ، بما فيها أيضا ألف ليلة وليلة التي خصّص لها عدد من الندوات العلمية والبحوث في السنوات الأخيرة ⁽²⁾ .

(1) إن نص محاضرتي الذي كنت لخصته - مرّجلا في الملتقى الدولي - من نصي الأساسي باللغة الفرنسية يستند أولا على هذه المقالة الأخيرة التي نشرت في تولوز تحت العنوان الآتي (في آخر 1994 / أول 1995) :

" L'apport de la papyrologie dans la transmission et codification des premières versions des Mille et une Nuits " . In : Les Mille et une Nuits. Contes sans frontières. AMAM, Université de Toulouse 1994, 21-33 (sans avoir corrigé moi-même les épreuves, de là quelques erreurs de frappe, et aussi dans mon premier prénom dans le résumé arabe p. 339; ainsi que dans celui de Nabia Abbott qui était une femme et non un homme) (!)

وأضفت الى هذه المقالة الفرنسية بعض الأفكار من كتب أو مقالات أخرى لي أذكرها في محلها المناسب إلا ما هو تحت الطبع مثل :

" Les grands centres de conservation et de transmission des manuscrits arabes aux premier et deuxième siècle de l'Hégir " . In : Actes des journées de codicologie et de paléographie des manuscrits du Moyen-Orient (Ecole Pratique des Hautes Etudes / Bibliothèque Nationale-Paris) . Sous presse.

(2) هناك عدد كبير من الكتب والمقالات المهمة بألف ليلة وليلة نجد معظمها في دراسات عامة أو جزئية للكتاب ، فلذلك اقتصر هنا بالإشارة إلى آخر ما ظهر في هذا المجال ، راجيا المَعذرة عند مؤلفين آخرين لعدم وصول عناوين ما نشره إلى سمعي بالأوان

J. E. Bencheik, Les Mille et une Nuits ou la parole prisonnière. Paris 1988. - E. Weber, Le secret des Mille et une Nuits. L'interdit de Shéhérazade. Toulouse 1987. - Le même, Imaginaire arabe et contes érotiques. Paris 1990 (avec leurs bibliographies) . - Les Mille et une Nuits. Contes sans frontière. AMAM, Université de Toulouse 1994 etc...

وليس الهدف من هذه الكلمات الإشادة بكتاب ألف ليلة وليلة وبمن يعتني بأهميته وأبعاده الفنيّة والأدبية ، بل هو دافع آخر يريد إلقاء الزيادة من الضوء على أوائل الروايات لهذا الكتاب ولبعض الكتب الأخرى العربية القديمة ، وإبراز أهمية ورق البردي للكشف عن أقدم تواريخ نقلها شفويا ثم تدوينها وضبطها بصورة خطية على مرّ الأجيال الإسلامية الأولى ⁽³⁾ .

1 . ألف ليلة وليلة

إنني أحافظ على استخدام عنوان الكتاب كما جرى ذلك استنادا على النسخ المتأخرة للمؤلف ، بينما الروايات الأولى له لم تستعمل إلا « ألف ليلة » كما يظهر ذلك بوضوح من خلال أقدم ما وصلنا في هذا الصدد ، وهو مقطع نشرته نيّة عبود ⁽⁴⁾ (Nabia Abbott) سنة 1949 .

ويشكل مقال الأستاذة هذا في هذه المرحلة من البحث العلمي أولا عرضاً لوضع الدراسات لألف ليلة وليلة وللمشاكل العديدة التي أثارها على مرّ الزمن ، بالأمانة العلمية التي نعرفها من الباحثة ، وثانياً نشرًا للمقطع المذكور وهو الذي يكون أقدم مقطع لهذا الكتاب الذي حُفظ لنا يحمل تاريخ آخر شهر صفر 266 هـ / 20 أكتوبر - تشرين أول 879 م - وسأطرق لهذا التاريخ فيما بعد للتحقيق في أساسه كما سنرى

(3) بما يتعلق بتاريخ ورق البردي والكتابات العربية عليه ومجموعاته ومحتوياتها الأخرى في العالم الشرقي والغربي ، راجع آخر ما نشرته في هذا الصدد وفيه لائحة وافية للمؤلفات بهذا الشأن :

R. G. Khoury, Papyrus, In : Encyclopédie de l'Islam, VIII, 1994, 268 b - 272 a.
- Le même, Chrestomathie de papyrologie arabe. Documents relatifs à la vie privée, sociale et administrative dans les premiers siècles islamiques. Leiden (Handbuch der Orientalistik) 1993, 7 sqq. (avec toutes les références bibliographiques).

Nabia Abbott, A ninth-century fragment of the " Thousand Nights ". New light ⁽⁴⁾ on the early history of the Arabian. In : Journal of Near Eastern Studies, VIII (1949) , 129-164 (texte arabe : 132-133).

وربطه بوثيقة أخرى كتب معها نص ألف ليلة وليلة في عدد يسير من الأسطر .

وهذا المقطع محفوظ في مجموعة برديات معهد الدراسات الشرقية في جامعة شيكاغو ⁽⁵⁾ تحت رقم 17618 . ومن المعلوم أن ورق البردي قديم الاستعمال منذ عهد الفراعنة في مصر ؛ وبعد الفتح الإسلامي لهذا البلد انتشر استخدامه لا في مصر فقط ، بل في أمصار إسلامية أخرى . وجرت العادة بين المختصين أن يُحفظ مع المجموعات البردية كل ما هو قديم من وثائق ورسائل إلخ ... على الورق القديم أو على الجلد أو الرق ومثل ذلك (راجع في ذلك دائرة المعارف الإسلامية ، مقالتي في papyrus حيث عرضت تاريخ ورق البردي في الإسلام وأهم المجموعات المحفوظة به في العالم والمؤلفات فيها إلى الآن في أنحاء العالم غربا وشرقا) ⁽⁶⁾ .

والمخطوطة المذكورة آنفا تحتوي على ورقتين (ليستا من البردي بل من الورق القديم) مربوطين الواحدة بالأخرى (24.2 × 13 سنتمترات) ، إذن بأربع صفحات . والصفحات تشمل - بين أشياء أخرى سنرى فيما بعد ما هي - نص ألف ليلة وليلة وهو يحمل بالعنوان « ألف ليلة » بدون « وليلة » إذن ، مع العلم بأن هذه الكلمة الأخيرة أضيفت إلى عنوان الكتاب في القرون اللاحقة . وتكتب عبود بما يخص محتوى الأسطر العام ما يلي :

" The manuscript contains six distinctly different entries; the chronological order of which, judged by the factors of space relationships, the different types of scripts; and the overlapping of the inks, seems to be as follows :

(5) راجع الملاحظة رقم 3 فيما سبق . وسلسلة الأستاذة عبود وما نشرته منها ، وخاصة : Nabia Abbott, The Kurrah Papyri ... Chicago 1938; Studies in Arabic Literary Papyri I, II, III, Chicago 1957, 1967, 1972 etc...

(6) راجع الملاحظة رقم 3 فيما أعلاه .

1. The Alf Lailah or " Thousand Nights " fragment
2. Scattered phrases on pages 2 and 3
3. Outline drawing of the figure of a man on page 2
4. A second group of scattered phrases in different hands on page 2
5. Rough draft of a letter on page 1
6. Formulas of legal testimony dated safar A. H. 266/Oktobor A. D. 879 written on the margins of all four pages ". (7)

وإذا ما تصفحنا عن كُتب هذه الأقسام نشعر بجلاء كاف أننا أمام مخطوطة من أقل المخطوطات اعتناء في التراث الإسلامي ، بالرغم من جهود الأستاذة لترتيب أجزائها . وحتى إن كان هذا التنظيم للفحوى أقرب إلى الواقع ، فيبقى الباحث في حيرة أمام هذه الأجزاء المتفرقة على الورقتين وهي أجزاء لا تفضي إلى نظرة منتسقة للكل ، بما فيه تاريخ هاتين الورقتين وربطه بهذه الأجزاء جميعا (8). وكأنّ الشاهد الذي وقّع اسمه على أقسام الوثيقة (راجع رقم 5) ربّ ب شكل غير منظم أرقام التاريخ ، كما عمله أيضا بما يتعلّق بعدة كلمات وجمل من الوثيقة (9) . فنظرا لهذه العوامل ليس من المنطق اعتبار هذا التاريخ تاريخا لكتاب ألف ليلة ، بل للشهادات بنفسها . وهي عديدة - ولتواريخها المتكررة والتي بينها سبعة كاملة (منها أربعة تماما) .

إذن نستطيع أن نستنتج من ذلك أنّ هذا التاريخ المتردد كاملا وجزئيا لا يمكن أن يعود إلى تاريخ كتاب ، بل هو فقط تاريخ هذه الشهادات ويتكرر مع كل واحدة منها ، كما يعرف ذلك من طريقة بناء الوثائق

N. Abbott, A ninth-century fragment, 133 (b). (7)

(8) انظر المرجع السابق ص 141 (b) .

(9) نفس المرجع ص 143 (a - b) .

الإسلامية القديمة في المجموعات العالمية لورق البردي ، كما يتضح أنه ليس له طابع غير أهداف صاحب هذه الشهادات وهو تاجر اسمه أحمد بن محفوظ يعيد هذه العبارات ويؤرخها ، كما يظهر : حسب حاجاته اليومية ، لأنه من الغرابة لمن يتصفّح الوثائق والمعاملات القديمة على ورق البردي أن يجد مثل هذا التكرار للشهادات والتواريخ باسم نفس الشخص ⁽¹⁰⁾ . فهذا التاريخ إذن ليس تاريخ « ألف ليلة » بل على أقصى تقدير مرجعا للدلالة على أنّ المقطع يعود إلى مرحلة سابقة له ، وهو الحدّ النهائي .

كلمات واضحة تماما أقرت نبية عبود نهانيا بصحتها في مقالاتها ، غير أنّها لم تعط براهين على ذلك تجري بنا من وجهة نظرية إلى أخرى أقرب من الواقع التاريخي واللغوي . فربطت أفكارها بما يُعرف من تاريخ الكتاب وروايته ، ودراسة الأماكن والأزمان وإثر الأصول الفارسية وغير الفارسية ⁽¹¹⁾ . ومع ذلك فيجب إعادة النظر حتى في هذه الناحية والاهتمام بالتحقيق في كل الروايات لألف ليلة وليلة ومقارنتها الواحدة بالأخرى ، دون إغفال ما للعامل العربي من مكانة لا يستغنى عنها كما سنرى ذلك فيما بعد . ولننّه مؤقتا البحث في الناحية التاريخية بملاحظة عامة : إنّ تاريخ المقطع له علاقة وثيقة بتاريخ مادة الكتابة هنا ، وهي ورق قديم وليس ورق بردي (papyrus) . وبما أنّ الورقتين من مجموعة شيكاغو وُجِدتا في مصر ووصلتا من هذا البلد إلى أميركا ، فلا نستطيع أن نعتبر هذا البلد المكان الذي دُوّن فيه هذا المقطع نفسه : أولا لأنّ مصر كانت بلد البردي ولسنا نجد ورقا قديما هنا يعود إلى هذه المرحلة القديمة .

(10) راجع مثلا في هذا الصدد شهادات قطع كثيرة في كتابي (راجع ملاحظة رقم 3) :
" Chrestomathie de papyrologie arabe... "

(11) انظر نبية عبود (المقال المذكور أعلاه) ص 143 وما بعدها .

ثانياً لأنّ ألف ليلة وليلة نشأت في العراق ، حيث تطوّرت صناعة الورق ، فلا بدّ أن يكون أصل الورقتين موطن الخلفاء العباسيين ، خاصّة أن تاريخ هذه الصناعة مربوطة بالخليفة هارون الرشيد أو على الأقل بعصره . ومما يؤكد مراحل تنقل مثل هذه الروايات للكتاب ظهور كلمتي « أدب شامي » في المقطع الذي نشرته عبود .

2 . الأدب القصصي القديم في الإسلام

إنني لا أريد أن أقوم في هذا الصدد بعرض لكل ما يتعلق بالقصص كقصص ، وقد خصص له خليل عثامنة ⁽¹²⁾ مؤخراً عدة صفحات في مجلة فرنسية بشكل واف يُحمد عليه تماماً ، وإنّما هدفي في ذلك لفت النظر إلى أهمية القاصّ والراوي وإلى الأدب الذي نشأ في هذا المجال منذ ظهور الإسلام إلى العصر الذي أخذت حكايات ألف ليلة وليلة تنتشر فيه . فعندما نتكلّم عن هذا الكتاب الأخير ، علينا ألاّ ننسى أنّ نوعية القصص والروايات فيه لها سوابق ليست أعجميّة (من فارسية وغيرها) فقط بل عربية قديمة كان الاستناد عليها أيضاً في جمع محتوى هذا المؤلف وتنسيقه وانتشاره . فالنوع القصصي الإخباري في الأدب العربي نشأ مع العرب في صحرائهم إذ كان الرواة يدوّنون في ذاكرتهم تراثهم وتراث آبائهم وأجدادهم ويقصونه على قومهم وغير قومهم . وكل يعلم ما كان للقصاص أو القاص من أثر في إحياء التراث الإسلامي ونشره بين عامة الفئات الشعبية وغير الشعبية ، إذ كانوا يرمون إلى تهذيب الأخلاق بطريقة مسليّة ، وهو أمر لا مجال للشك فيه ، خاصة في الأجيال الأولى . فكان لهم مركز رفيع عند الجماهير ، أكثر

Khalil Athamina, al-Qasas : Its emergence, religious origin and its social- (12) political impact on early Muslim Society. In : Studia Islamica, LXXVI (1992) 53-74.

من غيرهم من العلماء الذين كانوا يعرضون مواضيعهم بأسلوب أقل
عذوبة وأكثر يبوسة⁽¹³⁾ . وهناك عدّة مراجع قديمة تشير إلى سلامة
هذا الرأي وعلى رأسها موقف الجاحظ من عدد منهم أعجبه سهولة
عبارتهم وظرف لغتهم⁽¹⁴⁾ . فهذه ناحية بغاية الأهمية لعبت دورا كبيرا
في نشر الأخبار القديمة موشحة بالأشعار الكثيرة الكثيرة⁽¹⁵⁾ ، مما زادها
رواجا عند مستمعيها وخاصة الأمراء والخلفاء كما سيظهر ذلك بجلاء
فيما يلي .

ومن هنا نرى أنّ هذه المهنة أصبحت في الإسلام بمثابة لمنزلة
الشعراء والرواة في الجاهلية ، تمشي على نمطها مضيئة إليها مفاهيم
جديدة مستقاة من المجتمع الجديد . إذن كان الخبر يسير يدا بيد مع الشعر
الذي كان يعطيه حيوية خاصة وصلابة وعذوبة . ونستطيع أن نفهم
بسهولة كبيرة - استنادا على هذا الواقع التاريخي في الأدب العربي القديم
- إعجاب الخلفاء الأمويين بمثل هؤلاء الرواة ، عندما أظهروا اهتماما
- ازداد مع الزمن - بالماضي العربي الجاهلي وخاصة اليمني . وبين أيدينا
نموذجان فصيحان لهذا النوع من النشاط الأدبي ، وهما كتابان لهما منزلة
خاصة في التراث العربي القديم ، مع العلم بأنّه لم يصلنا من الأصول من
هذه الأزمنة الغابرة - بجانب الشعر - إلّا القليل القليل ، مما يضيف الكثير

(13) راجع بيلا (Charles Pellat) في دائرة المعارف الإسلامية :

Encyclopédie de l'Islam (nou. éd.) IV, 733/63 sqq.

(14) انظر في ذلك ما ذكره شارل بيلا :

Charles Pellat, Le milier basrien et la formation de Ġāhiz. Paris 1953, 110.

(15) هذه ناحية مهمة أشار إليها الكثيرون ، ليس فقط في الشرق ، ولكن في الغرب أيضا .

خاصة منذ أن صدر المجلد الأول لتاريخ الأدب العربي لبلاشير :

R. Blachère, Histoire de la littérature arabe. I. Paris 1952 sqq. - et plus proche de nous, E. Wagner, Grundzüge der klassischen Dichtung. I. Die altarabische Dichtung. Darmstadt 1987, 1 sqq.

والكتاب الأخير باللغة الألمانية والمجلد الأول في الشعر الجاهلي ، ذكرته برغبة الإعلان عنه
لمن يقرأ الألمانية .

إلى قيمتهما ويدفع إلى دراستهما بالدقة الضرورية . وسأتطرق إلى عرض سريع لهما والمتوقف على ارتباط أحدهما بشكل مميز بالخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان .

أولهما « كتاب التيجان في ملوك حمير » وهو لابن هشام صاحب سيرة النبيّ .

وثانيهما « أخبار عبيد بن شربة الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وانسابها » ⁽¹⁶⁾ .

والكتابان صورة نموذجية لنوع القصص في القرن الهجري ، لأنهما يعطيان مثلا ساطعا لتطور هذا الفن تحت تأثير عوامل مختلفة من دينية وسياسية وقبلية . والكتاب الأول لابن هشام نشأ استنادا على كتيب لوهب بن منبه ⁽¹⁷⁾ (34 - 110 (أو 114) هـ / 654 - (55) هـ - 728 . أو 732) عن طريق أسد بن موسى الأموي ⁽¹⁸⁾ (132 - 212 هـ / 750 - 827) وبواسطة ابن بنت وهب المذكور ⁽¹⁹⁾ . وهذا الكتاب أطول وأكمل وله

(16) نشر معا في مجلد واحد في حيدرآباد 1347 هـ / 1928 . وأعاد طبعها مؤخرا في صنعاء 1979 ، مع مقدمة قصيرة (3 صفحات) وبعض الملاحظات عبد العزيز المقالح ، الشيء الذي يحمد عليه كثيرا إذ سهل اقتناء وانتشار الكتابين .

(17) في وهب بن منبه . راجع كتابي فيه :

Wahb B. Munabbih... Wiesbaden 1972 (Codices Arabici Antiqui I) 1972 .

بالإضافة إلى دراسة في حياة ومؤلفات وهب نشرت فيه (مغازي الرسول وحديث النبي داود) (وهي أقدم ما وصلنا في هذا الموضوع في الحضارة الإسلامية) .

(18) وفي أسد انظر أيضا كتابي فيه :

Asad B. Musa... Wiesbaden (Codices Arabici Antiqui II) 1976.

وفي هذا الكتاب نشرت كتاب الزهد المنسوب إليه ، مع دراسة في حياة ومؤلفات هذا العالم .

(19) كتاب وهب عنوانه : « كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم » (فيه راجع كتابي في وهب ص 286 - 302) .

طابع ديني سياسي ، إذ كان ابن منبه يعرف بين أوائل المختصين في التاريخ الإسلامي القديم بمعرفته لتاريخ أهل الكتاب في العهد القديم والجديد (توراة وإنجيل) وتاريخ الرسل والأنبياء قبل الإسلام . فطابع سرد الأخبار يتميز عن الكتاب الآخر بصورة خاصة لما فيه من واقعية أكبر مما هناك (من أسماء وأجيال متعلقة بهذه الناحية ، كما يظهر ذلك بجلاء في إعطائها بلغات سامية أخرى) ⁽²⁰⁾ ، بالرغم مما يخيم على الكتاب من روح شبه تاريخية غير أنها تبقى تحت ما نجده في كتاب عبيد من غلو وانفراد في القصص الخرافية ، ومؤلف هذه القصص والأخبار اليمينية هدفه - وإن كان يرمي كما في الكتاب الأول إلى إعلاء شأن اليمن وربطه بنفس ماضي العرب المقدس الموحد - يختلف نوعيا في طريقة سرد الأخبار عموما ، إذ هي مسيرة بشكل حديث بين الخليفة معاوية والراوي عبيد. ونحن نعلم من مدخل الكتاب كيف جاء الراوي من اليمن إلى دمشق على مشورة من عمرو بن العاص - فاتح مصر وحليف الخليفة - إذ بين مؤسس الدولة الأموية عناية خاصة بالماضي العربي الجزيري « وكانت أفضل لذاته في آخر عمره المسامرة وأحاديث من مضي » ⁽²¹⁾. فبعد أن نُعت له عبيد بأنه أفضل من يعلم ذلك ، إذ عاش في جاهلية وفي إسلام ⁽²²⁾ ونُسب له عمر طويل طويل ، فأدخل بين المعمرين ⁽²³⁾، أتى به إلى بلاطه وأوسع عليه وعلى عياله . فإذا الراوي صورة مثالية للراوي والمؤدب كما يوصف عند دخوله إلى الخليفة : « فدخل عليه شيخ

(20) بما يعود إلى الكتّابين بما فيهما من تشابه وتفارق ، راجع كتابي في وهب (ملاحظة رقم 17) ص 286 وما بعدها .

(21) أخبار عبيد ص 312 / س 7 - 8 .

(22) نفس المرجع ص 312 / س 8 - 10 .

(23) وهذا ما نراه عند : سهل بن محمد بن عثمان السجستاني : كتاب المعمرين (طبع جولدتسيهر I. Goldziher) ليدن 1899 ص 40 - 43 (من النص العربي) .

كبير السنّ صحيح البدن ثابت العقل منتبه ذرب اللسان كأنه الجذع .
ومّا يزيد متعته هو أنّه كان قريبا جدّا من الأخبار والوقائع التي توجّب
عليه سردها ، إذ هو يجب معاوية في هذا الشأن قائلا : « أدركت يوما
في أثر يوم وليلة في أثر ليلة » (24) .

أليس ذلك أحسن المؤهلات « لمسامرة » الخليفة وقص « أخبار من
مضى » عليه ؟ أليس ذلك ممهدا لما نشأ فيما بعد بجوه وطريقة بنائه
ومنابعه التاريخية والشعبية وحتى الأدبية ، وما يعبر عنه معاوية في
الوظيفة التي أوكلها لعبيد بعبارة في غاية الفصاحة والدلالة :

« إنّي أردت اتخاذك مؤدبا لي ومقوما . وكن لي سميرا في ليلي
ووزيرا لأمرى » (25) .

نحن هنا أمام برنامج سمر وأدب ، ترويح وتأديب سيجري عليه
الخلفاء بعد معاوية ، وطبعا العباسيون منهم (26) ، ويزداد رواجاً ، خاصة
وأنّ القصص لذينة ، ممتعة ، يلعب فيها الشعر دورا كبيرا ، إذ تظهر
أهميته بجلاء تام في أخبار عبید فيبنی عليها سير الوقائع والأحداث
وصحتها التاريخية والروائية ، ممّا تبرزه رغبة الخليفة بمعرفة أشعار يستند
عليها الحديث من ناحية ، وأجوبة الرّأوي بإعطائه عددا هائلا من الأشعار

(24) أخبار عبید ص 312 / س 12 - 313 / س 1 . وياقوت : ارشاد (طبع Margoliouth) ،
القاهرة (الطبعة الثانية) ص 12 (والترجمة من ص 10 - 13 ، وفيها إعادات لما يذكره ابن
الديم في فهرسته (طبع Fluegel) 1871 ص 89 - 90 .

(25) أخبار عبید ص 313 / س 1 - 3 .

(26) راجع في العصور العبّاسية الأولى : علي محمد هاشم : الأدبية في العصر العبّاسي
في العراق حتّى نهاية القرن الثالث الهجري . بيروت 1982 . وهناك عدد من
أطروحات دولة حول مؤلفين مختصين بمثل هذه المجالس الأدبية في فرنسا وألمانيا . أرجو
أن ينشرها أصحابها عمّا قريب . والمرحلة السابقة من الجاهلية إلى آخر العهد الأموي لم
تزل تحتاج إلى دراسة دقيقة شاملة .

من ناحية أخرى . فهذا فرق هائل بين كتاب عبيد وبين كتاب ابن هشام حيث الأشعار أقل بكثير ، بينما يبقى الشعر في أخبار عبيد محورا أساسيه لا يستغنى عنه أينما اتجه بنا النص⁽²⁷⁾ .

3 . مقطع آخر على ورق البردي مرتبط بعمر بن العاص ومعاوية

والكتابان الآنفا الذكر ليسا الوحيدين لإبراز أثر نصوص عربية قديمة كان نخطها وطريقة روايتها منتشرين نوعا من قبل ظهور ألف وليلة ليلة . وليست غايتي هنا أن أبرهن على أن هذا الكتاب الأخير من أصل عربي ، ولكنني أودّ أن أشير إلى ما كان قبله عند العرب ، يسيرون عليه منذ أجيال قبل ألف ليلة وليلة ، وهذا لا يعني أن الفرس لم يعطوا شيئا ، إذ هذا يكون خطأ ثانيا لا أريد أن أكون سبب ارتكابه على الإطلاق . ولكن من الواجب الإقرار بما نشأ وتطور هنا وهناك وفي مكان ثالث أيضا فتجمعت أجزاؤه لتشكّل بناء فيه مزيج من حضارات وبلدان مختلفة .

ومّا يشهد على صحّة الأثر العربي القديم مقطع على ورق البردي وليس على الورق العاديّ نشرته الأستاذة عبود (Abbott) في آخر مجلد لبردياتها قبل وفاتها :

والمقطع مؤلف من قسمين كل منهما ببضعة أسطر :

القسم الأول خطبة لعمر بن العاص يحث الناس فيها على طاعة أمير المؤمنين (الذي لا ذكر لاسمه ، غير أنّه لا بدّ أن يكون معاوية ، نظرا لما كان يربط الإثنين من الناحية السياسية وغيرها) .

(27) انظر أوفى ما كتب بهذا الشأن ، وهو من قلمي طبعته مؤخرا إكراما للأستاذ W. Fischer : Kalif, Geschichte und Dichtung... Journal of Arabic Linguistics/Journal de Linguistique Arabe, 25 919930; 204-218.
يدور حول كتاب عبيد وموقف الخليفة منه وخاصة بما يتعلق بالتاريخ والشعر .

والقسم الثاني يحتوي على وصف للجارية المثالية (The Ideal Maiden)⁽²⁸⁾. وهذا القسم الأخير يحمل اسم يعقوب بن عطاء بن أبي رباح (ت 155 هـ / 771) الذي لم تستطع عبود أن تحدد له أية سنة (لا ميلاده ولا لوفاته) بالرغم من أن سنة وفاته معروفة . فلذلك ترددت كثيرا في وضع الإطار التاريخي لهذا المحدث فربطته بتاريخ وفاة والده عطاء بن أبي رباح (ت 114 هـ / 732) ، إذ ذكرت أنه قد يكون عاش بعد والده هذا المتقدم بالسن ، أو قد يكون مات قبله⁽²⁹⁾ .

على أي حال من غاية الأهمية أن نعرف أن هذا النص الصغير يصف ببضعة أسطر مزايا جارية مثالية بأسلوب عربي قديم ذي قواف ، يذكر القاريء بلوحة خلابة في ألف ليلة وليلة (وهي : وصف تودد العظيم الذي له سوابق موضوعية عند العرب) . وكما نرى لا بدّ من أخذ مثل هذه المقاطع بعين الاعتبار ، وهي مقاطع تنشأ فيها الأفكار بمقدار صغير صغير ، فتتطور مع ممر الزمن لتشكل صفحات أو أبوابا . ولم تربط الأستاذة نبيه عبود هذا الوصف بألف ليلة وليلة ، وإن عمدتُ أنا إلى ذلك ، فهدفي هو هو لم يتغيّر : وهو إبراز بعض التراكمات القديمة الأصل عند العرب ، من شأنها أن تعطي نظرة أكبر شمولاً على الأجناس الأدبية التي نجدها في كتب مثل كتاب ألف ليلة وليلة .

(28) في المقطعين اللذين نشرتهما عبود مع دراسة في تاريخهما وأهميتهما ، راجع المؤلفات المذكورة :

Nabia Abbott : Studies in Arabic Literary Papyri. III. Language and Literature (The University of Chicago Oriental Institute Publications 77) 1972, Document 3 : " A Speech of Amr Ibn al-As and Description of The Ideal Maiden " , p. 43-78.

والنص العربي في ص 43 - 44 . وهو مؤلف من إحدى عشر سطرا .

(29) نفس المرجع ص 78 / س 13 ، ما بعده . وهي لم تنتبه مثلاً لتعذيب ابن حجر العسقلاني . م 11 / ص 392 - 393 . في هذا المحدث يعقوب ، إذ يذكر ابن حجر سنة وفاته بكل وضوح .

وحتى لو أراد الباحث أن يشك في قدم مثل هذا الوصف للجارية على ورق البردي ، فلا بدّ أن يكون على أقصى تعديل من أيام صاحب الحديث أي يعقوب بن عطاء ، وهذا مهم جدا ، إذ نحن نعلم أنّ مادة ألف ليلة وليلة لم يكن أول الأخذ بها إلا على أقرب تقدير بآخر حياة هذا العالم ، مما يعطي المقطع المذكور مكانة السابق . وربط القسم الثاني من هذه البردية بالقسم الأول ، أي بخطبة عمرو بن العاص وعلاقته بمعاوية ، يؤيد بلا شك فكرة القدم ، خاصة وأن عمرو نفسه نراه يشارك معاوية في انتقاء الراوي عبيد للمجيء به قرب الخليفة إلى دمشق كما يبدو ذلك لنا بوضوح في مطلع الكتاب .

وهكذا تتجمع لنا بعض النصوص القديمة ، عائدة بنا إلى ماض بعيد في التراث العربي الإسلامي . وكلّها نشأت في أواخر القرن الأول الهجري كأخبار عبيد أو أساس كتاب التيجان المنسوب لوهب بن منبه (تقريبا بنفس العنوان حرفيا) أو في أواخر العهد الأموي أو أوائل العهد العباسي . وهناك أدلة إضافية لدعم الرأي بأنّ هذه المؤلفات كلها ، إن لم تكن دوّنت من قبل ، فعُمل بتدوينها على أبعد حد في القسم الأخير من القرن الثاني الهجري أو في أوائل الثالث . وسنرى كيف حصل ذلك ، استنادا على روايات وكتب أخرى وصلتنا من هذه المرحلة على ورق البردي .

ولنبتدئ بأخذ شهادة الذهبي - الذي حفظها لنا ابن تغيبردي - وهي في سياق الأخبار عن وقائع سنة 143 هـ / 760 - 761 ، وذلك كإطار عام :

« قال الذهبي وفي هذا العصر شرع علماء الإسلام في تدوين الحديث والفقه والتفسير وصنف ابن جريج التصانيف بمكة وصنف سعيد بن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهم بالبصرة وصنف أبو حنيفة الفقه

والرأي بالكوفة وصنف الأوزاعي بالشام وصنف مالك الموطأ بالمدينة
وصنف ابن إسحاق المغازي وصنف معمر باليمن وصنف سفيان الثوري
كتاب الجامع ثم بعد يسير صنف هشام كتبه وصنف الليث بن سعد وعبد
الله بن لهيعة ثم ابن المبارك والقاضي أبو يوسف يعقوب وابن وهب وكثر
تبويب العلم وتدوينه وربت ودوّنت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام
الناس وقبل هذا العصر كان سائر العلماء يتكلمون عن حفظهم ويروون
العلم عن صحف غير مرتبة فسُهل ولله الحمد تناول العلم فأخذ الحفظ
يتناقص « (30) .

هذا كلام واضح رائع في جلالة ومدى معانيه . ولقد خصّصت
له في عدة مواضع تحليلاً وافياً ، في الماضي القريب (31) ومؤخراً ،
مما يغني عن إعطاء تفاصيل فيه . فلن أشير إلي بعض أفكاره إلاّ لأبيّن
كيف نجد علاقة وثيقة بين هذا النشاط الذي يعنيه الذهبي وما لدينا من
نماذج أدبية قديمة على ورق البردي أو غيره ، تعود بنا إلى هذه المرحلة
التاريخية من التصنيف والتدوين . فالراکز هي إذن كما يلي :

- الحجاز

- العراق

- سوريا

- اليمن

- مصر .

إذ يذكر النص أكبر عدد من العلماء (الليث بن سعد - عبد الله بن لهيعة
- عبد الله بن المبارك وعبد الله بن وهب تلميذي الأولين) .

(30) ابن تغريبردي : النجوم الزاهرة (نشر Juynboll - Matthes) ليدن 1851 م ، ص 387
/ س 18 - ص 388 / س 11 .

(31) راجع كتابي في عبد الله بن لهيعة (ص 31 وما بعدها) :

Abd Allah Ibn Lahia (97 - 174 / 715 - 790) Juge et grand maître de l'Ecole
Egyptienne. Avec édition de l'unique rouleau de papyrus arabe conservé à
Heidelberg, Wiesbaden (Codices Arabici Antiqui I V) 1986.

وجل ما نستطيع أن نستخرجه من هذه النشاطات الفكرية الخطية هو أنها أصبحت كثيرة وأخذت تتزايد مع اتساع الدولة الإسلامية على عهد الخلفاء العباسيين لأسباب سياسية ودينية وإدارية وعلمية إلى غير ذلك ، ممّا فرض التبويب والتدوين بازدياد متصل ، خاصة بعد تطوير وسائل الكتابة وانتشارها في الأمصار الإسلامية ، حتى إن كلمة القلقشندي تؤدي في هذا الصدد المعنى المنتظر ، فهو يقول :

« الكتابة أس الملك وعماد المملكة » (32) .

وإذا ما دققنا الفحص في هذه المعطيات وجدنا أنها كلها تشير إلى تحول علمي ، لم يحصل بالتأكيد فجأة ، بل سار رويدا رويدا ، غير أنه أخذ حيوية خاصة مع العباسيين للأسباب الكثيرة التي ذكرناها . فإذا العلماء أمام نهر علمي تضخم في مجراه حتى أصبح من الواجب عليهم ترتيب هذه المجموعات المتكاثرة . فكان من الضروري على من يضبط أو يريد أن يضبط ويحفظ خطيا أن يصنف ويؤبّ ويرتب . وهي كلمات رأيناها هكذا أو بشكل مقارب في نص الذهبي . ومن البديهي أن يكون لمصر في هذه المرحلة المتقدمة في تدوين التراث الإسلامي مكان أصيل ، لما كان متوفرا فيها من تقاليد ووسائل للكتابة لم تكن معطاة بنفس المقدار في الأمصار الإسلامية الأخرى ، وخاصة وجود ورق البردي المصري بغزارة ، وقد كان استعماله منتشرا على أيام الفراعنة أكثر من ألفي سنة قبل ظهور الإسلام . وهذا الواقع سهّل فيما سهل للعلماء المسلمين هناك استخدامه منذ البداية . فحفظوا عليه بصورة خاصة ، إذ كان أسهل استعمالا وحفظا من غيره من مواد الكتابة (رق أو جلد إلخ ...) ، علوم عصرهم التي كانوا يهتمون بها . لذلك وصلتنا من هذا البلد أكبر كمية

(32) القلقشندي : صبح الأعشى (طبع القاهرة 1331 / 1913) م 1 / ص 37 / س 11 وما بعده حيث يصف فوائد الكتابة في المجتمع .

دوّنت على ورق البردي في العالم الإسلامي وفي القرون الثلاثة الأولى .
والعدد الأكبر الأكبر لهذه المخطوطات مؤلف من وثائق عديدة ورسائل
مختلفة من فردية شخصية أو اجتماعية أو إدارية (مثل رسائل قرّة بن
شريك الوالي الأموي في مصر) ، وهي بالآلاف العديدة المحفوظة في
المجموعات البردية في العالم ، وبصورة خاصة في فينا .

وبين من يذكرهم ابن تغريبردي عن الذهبي يحتل عبد الله بن لهيعة
(97 . 174 هـ / 715 . 790) محلا خاصا يفصله عن غيره ، بالرغم من
أنّ صديقه المحسن إليه الليث بن سعد (94 . 175 هـ / 713 . 791) ، « أمير
مصر غير المتوّج » وأكبر علمائها قدرا وثراء ، له الدرجة الأولى ، إلا أنّنا
لا نعرف له سوى أحاديث عديدة في كتب البلد وغيرها ولا نعلم سوى
القليل عن نشاطه العلمي اليومي . وذلك معاكس لعبد الله بن لهيعة الذي
تتلمذ له معظم من تتلمذ لليث ، حتى أنّهما يعدان إمامي المدرسة المصرية
في التاريخ والحديث وشيخي عبد الله بن المبارك (118 . 181 هـ / 736
797) . وعبد الله بن وهب (125 . 197 هـ / 743 . 812) الشهيرين . فابن
لهيعة لم يكن قاضيا لمصر مدة من الزّمن فحسب ، بل أصبح بيته دار
علم ومكتبة تذكرها المصادر ويحفظ فيها أصولا وفروعا لما كان يدوّن
في بلده من مختلف العلوم . ونستطيع أن ننسق بعض الشيء من هذه
الأعمال حسب ما وصلنا منها على ورق البردي من تأليفه أو تأليف
تلاميذه أو ما حفظه عنده هؤلاء الأخيرون نقلا عن علماء أتوا إلى
مصر زوارا أو استقروا فيها على مرّ الأجيال إلى زمنه :

1 . من أعماله أو أعمال تلامذته المباشرين :

ـ صحيفة عبد الله بن لهيعة ، وهي الصحيفة الوحيدة التي
حُفظت لنا من التراث الإسلامي القديم وأصلها موجود في جامعة
هيدلبرج . نشرتها مع دراسة في مؤلفها وشيوخه وتلاميذه وأهم

الحوادث فيها (وخاصة دفاع الخليفة عثمان بن عفان عن نفسه عندما حوَّصر بيته وقتل فيه ، ثم مصرع عبد الله بن الزبير بعدما حاصره الحجاج بن يوسف) . ورواها عنه تلميذه المصري عثمان بن صالح (144 هـ - 219 هـ / 761 - 834) ⁽³³⁾ .

2 - من أعمال غيره جمعها رواية مصريون (من تلامذته أو تلامذة معاصريه في مصر) كانوا يترددون على مكتبته :

- « حديث داود » .

- « مغازي رسول الله » .

وهذا النص الأخير يحمل أقدم تاريخ كتاب مؤرخ في الإسلام : 229 هـ / 844 . والنص السابق له بنفس الخط وعلى يد نفس الراوية ، مما يعود به إلى نفس المرحلة التدوينية . وقد نشرت هاتين البرديتين مع دراسة شاملة في مؤلفها وهب بن منبه المذكور أعلاه ومن رواهما عنه ⁽³⁴⁾ .

3 - أعمال أهم حجما لعلماء قصدوا مصر واستوطنوها ، فزاروا مكتبة ابن لهيعة الشهيرة ونقلوا ما احتاجوا إليه لتصنيف كتبهم ؛ اذكر بصفة منفردة :

- « كتاب بدء الخلق وقصص الأنبياء » رواه عمارة بن وثيمة بن موسى بن الفرات الفارسي الفسوي (ت 289 هـ / 902) عن أبيه

(33) في ابن لهيعة ، راجع كتابي المذكور أعلاه (ملاحظة رقم 31) . في حياته وأعماله ص 7 - 86 . في شيوخه وتلاميذه ص 87 - 177 . في الليث بن سعد ص 173 - 177 . في عبد الله بن المبارك ص 170 - 172 وفي عبد الله بن وهب ص 122 - 126 ، والصحيفة نصها من ص 244 إلى 307 .

(34) راجع كتابي في وهب (ملاحظة رقم 17) ؛ حديث داود ص 34 - 115 والمغازي ص 118 - 175 .

وثيمة بن موسى (ت 231 هـ / 851)، استنادا على ما كان محفوظا عند ابن لهيعة، إذ نرى مثلاً في قصة النبي داود عنده ارتباطا وثيقا جدا بقطعة وهب بن منبه (= « حديث داود ») الآتفة الذكر، لأنها نقلت حرفيا عنها فساعدتني بفضل ذلك أن أرسم نص البردية وأملأ فراغه الهائل بصورة أمينة لا شك فيها، كما نرى ذلك في مقارنة النصين. وقد نشرت أيضا هذا الكتاب الأخير وهو في أكثر من أربع مائة صفحة (مع دراسة في الراوي ووالده وجميع شيوخهما - وفيما بينهم رواية مصريون ينتمون إلى جماعة ابن لهيعة ونجد أسماء لهم لما ذكرت تحت رقم 2) (35).

4. ويجب ألا ننسى في هذا الصدد « جامع الحديث » لعبد الله بن وهب، تلميذ ابن لهيعة؛ ويشكل هذا الكتاب الذي نشره David-Weill أكبر نصّ حفظ على ورق البردي في تاريخ الحضارة الإسلامية (36).

5. ثم لا بدّ أن نضيف كل ما نعرفه عن وثائق إسلامية مختلفة من فردية أو اجتماعية أو إدارية كتبت في مصر، خاصة من أواخر القرن الأول إلى أيام عبد الله بن لهيعة، لا بدّ أنّها لفتت أنظار القاضي ابن لهيعة فجمعها إلى أصوله أو فروعه، خاصة وأنّه كان يكتب وينسخ ويملي على

(35) انظر في ذلك ما نشرته في كتابي :

Les légendes prophétiques dans l'Islam depuis le I^{er} jusqu'au III^e siècle de l'Hégire. D'après le manuscrit d'Abu Rif0 a Umàra b. Watima b. Musa b. al-Furat al-halq wa-qisas al-anbiya. Avec éd. dritique du texte. Wiesbaden (Codices Arabici Antiqui III) 1978.

في الرواة من الشيوخ ص 83 - 136. في الابن ص 137 - 139 وفي الوالد ص 139 - 150 (وفيها ص 150 وما بعدها).

(36) راجع الكتاب :

J. David-Weill : Le Djâmi d'Ibn Wahb. Le Caire (PIFAO. Textes Arabes III, 1, 2) 1939, 1941-48.

من حوله ، حاملا دائما معه . كما تذكر المصادر . ما يكتب عليه وذلك حول عنقه ، فلذا لُقّب « بأبي خريطة » . إلى غير ذلك من مؤلفات من زاره أو تتلمذ له من العلماء الأجانب .

إنّ هذه التّصوص بغاية الصدق في شهادتها عمّا أتى لنا به ابن تغريبردي على لسان الذهبي . وإذن بمكتبة ابن لهيعة وما نجد فيها من الآثار . ولو كانت تلك الآثار قليلة العدد المحفوظ منها إلى الآن . تصبح منارة تلقي الضوء على ما ظهر من نشاط في التصنيف والتّدوين ، وتفيدنا عن أمور مماثلة حدثت في أمصار أخرى ولكن دون أن يصلنا منها بصورة أصليّة شيء ، مثل هذه البرديات المصرية الإسلامية التي رأيناها .

وكل هذه المخطوطات القديمة على ورق البردي والأخرى التي وصلتنا على ورق بشكل كتب ، والتي نقلت موادها عن أصول أو نسخ أولية عن أصول لها ، تعود بنا إلى أوائل ازدياد النسخ والتصنيف ، وتساعدنا على ربطها الواحدة بالأخرى ، لا بواسطة روايتها وشيوخهم فقط ، بل أيضا بفضل استخدامهما بعض العبارات في عناوينها كانت تستعمل بدون تفرقة ، فبطّل هذا الاستخدام في العناوين ، لأن تصنيف العلم المتزايد فرض الاختصاص والتمييز بطبيعة الأمر . وهذا أمر واضح أود أنّ أظهر جلالة استنادا على قصة النبي داود على ورق البردي وقصّة نفس النبي في كتاب عمارة بن وثيمة السالفتي الذكر . فعنوان القصّة في البردية :

« حديث داود » (37) .

وعنوانها عند ابن وثيمة :

« قصّة ... » (38) .

(37) في هذا العنوان راجع ملاحظة رقم 34 .

(38) في هذا العنوان راجع ملاحظة رقم 35 .

وإذا ما تصفحنا تاريخ والد المؤلف أو الراوي وجدنا أنّ هذا الوالد أتى إلى مصر يستوطنها ولم ينقل عن البردية أو البرديات المحفوظة هنا في آخر عمره ، بل قبل تاريخ بردية داود النبيّ أي 229 هـ . وسبق لي أن وثقت قضية كون هذا التاريخ تاريخ نسخة عن أخرى أصلية أو أقرب من الأصل ، يعود إلى عهد ابن لهيعة أو إلى سنين قريبة جدا منه . وهذا يدل تماما على أنّ « حديث داود » أقدم عهدا بعشرات من السنوات (وأكثر) من « قصص » ابن وثيمة وأبيه ؛ ولذلك استخدم الوالد عنوانا جديدا لكتابه ، لا العنوان الذي كان يستعمل فيما سبق ، كما نراه في البردية ، إذ أصبحت كلمة « حديث » تستعمل فقط في عناوين كتب الحديث (النبيّ) كعنوان ، وذلك بسبب زيادة الاختصاص في تداول العلوم وإرادة تصنيفها بطرق سليمة منسّقة . فذلك يعني بصورة واضحة أن استعمال كلمة - حديث بمعنى قصة أو خبر - في عنوان كتاب أو كتيب إلخ يُرجع تاريخ الكتاب الذي يحمله في عنوانه إلى عهد هذه البرديات المؤرخة والتي كانت على أكبر تقدير محفوظة في مكتبة عبد الله بن لهيعة أو قليلا بعدها . وبالنسبة لمقطع « ألف ليلة » الذي نشرته نبية عبود فهناك عنوان الكتاب الذي منه هذا المقطع وهو كما يلي : (39) .

1 - « كتاب

2 - في حديث

3 - ألف ليلة ، لا حول

4 - ولا قوة إلا بالله

5 - العلي العظيم » .

(39) في هذا العنوان راجع مقالة عبود ص 132 . والنصّ يتبعه على نفس الصفحة وطوله 16 سطرا .

مما من شأنه أن يعيد تاريخ المقطع إلى نفس العهد الذي ذكرته ، لأنّ ذلك المقطع أخذ من أصل أقدم ، انتشرت روايته في أواخر القرن الثاني أو على أقصى حدّ في أوائل القرن الثالث (أيام بردية « حديث داود ») . ونفس المقال نافذ بما يتعلق بكتاب عبيد بن شرية المذكور أعلاه ، وخاصة بما يتعلق بالرواية التي وصلتنا للكتاب ، وروايتها من القرن الثالث الهجري ، وهي تستعمل أيضا في مطلع الكتاب كلمة « حديث » بمعنى قصة أو خبر وبالقرب من العنوان ، مما يؤيد قدم الرواية التي وصلتنا ويرجع أصلها إلى أيام الخليفة معاوية ، كما رأينا ذلك آنفا .